# خلود الحياة(١)

# في فلسفة اقبال

كان شبح الموت المخيف الرهيب يبدو أمام الناس جسماً عظيماً ، وبقدر ما كانت جسامته وخطره كان في عين اقبال ضئيلاً متلاشياً . لعله كان يرى أن العقبة الكؤود في طريق رقي المسلمين الحرص على الحياة ومخافة الموت . أو كما عبر عنه الرسول الأعظم حب الدنيا وكراهية الموت . وقد وجد أن خوف الموت ليس معناه الا أمراً واحداً وهو ترجيح حياة الذلة والعبودية على موت الشرف والكرامة . فحاول أن ينتزع هذا المرض النفسي من صدور أهل الاسلام مبيناً أن خوف الموت والايمان لا يجتمعان في قلب واحد ، وان الذين تسنموا ذاوب العزة والشرف هم الذين يحملون رؤوسهم على أكفهم في ميدان الكفاح ولا تنخلع قلوبهم فرقاً ، ولا ترتعش عزائمهم جبناً . وإنما يقبلون على الموت اقبالهم على العرس ، ويفرحون بالتضحية فرحهم بالنصر ، مؤمنين بالفوز في الدنيا أو السعادة بلقاء الله .

(قل هل تربصون بنا الا إحدى الحسنيين) (فأما النصر وأما الموت فيه الفخر)

ثم يذكرنا اقبال بأسلافنا الماضين الذين ملكوا الممالك وأدالوا الدول ووطئت خيولهم القلاع والحصون وما اشتروا هذا المجد الا بدمائهم . فهو في قصيدته الشكوى يذكرنا بهذه الحقيقة في جلاء حيث يقول : —

فوق الصوامع والكنائس صوتنا  قد كان يعلو بالأذان جهارا

تترنم الصحراء في أفريقيـة  بصلاتنا وتسابق الأطيارا

كنا نقدم للسيوف صدورنا  لم نخش يوماً غاشماً جبارا

وكأن ظل السيف ظل حديقـة  خضراء تنبت حولنـا الأزهارا

---

(١) مقتطفات من الكتاب الذي سيظهر قريباً بعنوان «فلسفة اقبال والثقافة الاسلامية في الباكستان والهند» ترجمة الاستاذ محمد حسن الاعظمي عميد كلية اللغة العربية في الباكستان والسكرتير العام لمؤتمر العالم الاسلامي الدائم والشيخ الصاوي شعلان دبلوم معهد اللغات الشرقية بجامعة فؤاد»

ثم يقول : —

لو مزّنت الأساد من أجلها لم يلق غير ثباتنا الميدان
وكأنّ نيران المدافع في صدور المؤمنين الروح والريحان

* * *

ويصف ذلك المسلم الذي يطلق كالسهم النافذ الى العدو بعد أن يكبر تكبيرة الجهاد في الميدان فيقول :—

ذلك المؤمن المجاهد يغشى غمرة الحرب والرّدى يخشاه
تحت ظل السيوف ماض قوي درعه لا إله إلاّ الله

يبين لنا بعد ذلك ان الحالة قد تغيرت ، وان سنة الاقوام قد تبدلت ، واستحكم الجبن في قلوب الكثيرين من المسلمين ، وأصبحت وجوههم تصفر اصفرار الشمس عند الأصيل اذا ذكر الموت أو الحرب .

ثم يخاطب الذين يتقاعسون عن الجهاد، ويتخلفون عن النضال قائلاً : ( ان خطباء منابركم ووعاظ أنديتكم أصبحوا غير نافعين ولا مغنين عنها ) . ثم يقول : —

لم يبق في يد مسلم درع ولا سيف يصول به ليوم جهاد
لو أنه وجد السيوف فهل له ذوق الخلود وحب الاستشهاد
من كان يجزع من منية كافر هل يستطيب معارع الأجماد

إذا كان المرء مخلصاً لحق الإخلاص ، وإذا كان واثقاً بأن الموت ليس إلا العقبة الأولى التي يجتازها المرء الى الحظيرة الأبدية والمتعة بلقاء الله . أقول اذا كان الايمان هكذا! فلا محل للخوف من الموت . أما أولئك المضطربون الخائفون فهم أولاً شاكون في لقاء الله وفي الخلود ، ثانياً فهم يعبدون المال ويؤثرون الحياة الدنيا ويظنون أن هذه الحياة المادية هي المرحلة الأخيرة للسعادة ، لذلك يخشون أن يموتوا فيحرموا . وإقبال يحكم حتى هؤلاء بأنهم فقراء ، وان ثارهم لا تساوي التراب ، وهم على كل حال سيموتون طوعاً أو كرهاً .

المؤمن الحق كان الله غايته والله كان لديه السمع والبصرا
والآن أضحى اله المال كعبته وخوفه الموت أفناه وما شعرا
سيان في الشرك هذا عابد ذهباً يسعى الى جمعه أو عابدٌ حجرا
يا مؤمناً بلقاء الله مالك في ذعر من الموت قد أشبهت من كفرا
قد عاد قلبك ميتاً بين أضلعه كأنه في حنايا الصدر قد قبرا

من كان يحسب ان الموت هاوية وانه عدم يستأصل البشرا
فان آماله ينحط عنصرها الى التراب ويلقى الموت محتقرا

لما كان سم الموت سارياً في كل الدماء البشرية فقد حاول اقبال ان يوجد من نفس السم ترياقاً . وكيف استطاع أن يصل بمهارة الى استخلاص هذا الدواء الغريب، انه عمد الى تذكيرنا بأن الموت أمرٌ محتوم ، وان لكل انسان أجلاً محدداً ، واذا كانت هذه النهاية قضاء نافذاً في الخلائق فالخوف منها لا يجدي فتيلاً . ومحاولة الفرار مع كونها جبناً وانحطاطاً في الوجدان فهي مخالفة لحكم العقل وصواب التفكير أيضاً . فالعاقل لا يفكر في النجاة من القضاء المبرم، كما لا يفكر في أن ينفذ من أقطار السموات والارض، وهو في هذه الحالة الى الجنون أقرب وبالمجانين أشبه . ولهذا عرض لنا عدة صور تمثل فناء هذا الكون، وهي صور من حوادث الطبيعة تحمل الينا نبأ بديعاً في منظرها الرهيب المخيف، وتذكرنا عند مطالعتها بعوالم السماوات. والارض جميعاً في طريقها الى الانتقال أو الزوال وكما انها تعالج فينا خوف الموت ، فهي كذلك تنبهنا من غفلتنا ، وترفع عن أعيننا أغشية الغرور والركون الى زهرة الدنيا وفتنتها .

تحت نور الأفلاك عيش جميل وأرى النور ينطفي ويحول
وعلى كاهل المساء ترى للشمس نعشاً بكى عليه الأصيل
في سنا البدر للكواكب أكفان توارى بها الشعاع النحيل
بينما هذه الجبال حصون واذا صخرها كثيب مهيل
وتقيم الامواج في البحر أبراجاً ومن أوجها الرفيع نزول
ورياح الخريف تكفن للزهر وفي ثغره ابتسام بليل
ثم تأتيه ساعة يذهب الزهر هشيماً وقد طواه الذبول
ليس زاد المسافرين سوى الخوف من الموت والحياة رحيل

* * *

ربّ لحن فاق البلابل سحراً في ضمير الأوتار مات حنينا
شرر النار قبل أن يبلغ المهد توارى تحت الرماد دفينا

* * *

قطرات الندى على الورد تجري لؤلؤاً سائلاً على مرجان
لم تكد تسعد النواظر حتى بدّد الريح شملها في ثوان

* * *

إن كأس الردى تطوف على الدنيا ويسقى أبناءها أجمعينا
وبلا موعد ودون انتظار يبغت الاولين والآخرينا

وقد حاول الفنان أن يبدد من النفوس استسلامها الى الدنيا واخلادها الى نعيمها الزائل، ودعانا الى الحذر منها، والاحتياط فيها، فقدم هذا التشبيه الرائع في هذه الأبيات:

مثل الحياة كطائر مترنم غنى فأرقص حوله الأزهارا
ما كان أعذب لحنه لكن كالحلم حلق في الفضاء وطارا

* * *

لا يعلم الانسان كيف أتى الـ دنيا المتاعب أو متى يترحل
ما نحن في الاكوان غير حديقة أزهارها مما قليل تذبل
يا أيها الحرص ابك في الدنيا وما دنياك كانت بها للحي منزل

* * *

إن الحياة شرارة لم تبتسم إلا لتجعلنا لها أحطابا
في عرس دنيانا مأتم للردى تطوي شيوخاً في البلى وشبابا

* * *

والمرء لم يبرح أسيراً حائراً ما بين سر الأمس أو لغز الغد
ان الحياة على الأنام بخيلة بدوامها والعيش غير مخلد
الموت فيها هين كنسيمها والعيش أصعب من منال الفرقد

الله تعالى هو المنفرد بالبقاء، وجميع العالم لا بدّ أن يفنى. وتفسير حكم الموت جرى في حياة الملوك والصعاليك والعظماء والسوقة.

أما خلود الانسان فهو من تقدير الله في الأزل، إلا أن هذا الهيكل الترابي الناقص لا بدّ أن يمر عليه الموت، ولا بدّ أن يمر الانسان من هذا العالم المملوء بالحوادث التي لم تترك صحراء ولا مدينة، ولم ينج منها برّ ولا بحرُ. وفي ذلك يقول: —

الرعد والبروق والزلازل والقحط والآلام والنوازل
بنات دنيانا التي لا تلد إلا خطوباً جمرها متقد
في الكوخ والقصر وفي الصحراء والمدن المبيعة الشماء
وفي رياض البلبل الرنان وفي تلال البوم والغربان

يقتحم الموت بجيش القدر حصون نخور(؟) وبطش القيصر
إذا رأيت الموج في البحر سكن فالموت كامن لاغراق السفن
لا نغم العود ولا شكوى الحزين ولا ابتسام البشر أو دمع الأنين
ولا امتشاق السيف بين الدارعين ولا صدى التكبير بين الهاتفين
يعبد نبض القلب في الصدر الخراب أو وجع النفس إذا حان الذهاب

ونعدّ هذه الصور الشعرية التالية فخراً لكل لغة، ونغماً شجيّاً لكل لسان، فهو يوضح لنا ان الآلام لا بدّ منها لتمحيص الانسانية، وعلى نيرانها تنضج الأرواح القوية، ولا يمكن الوصول الى الأفراح إلاّ بعد الأحزان، ولا تنقش الحكمة على القلب إلاّ بحروف من دمه، والبلبل الذي لم يعرف قسوة الخريف لا يحسن استقبال الربيع ، والآلام هي الطريق الى النور والدرجات العالية في معراج العظمة . والذي لم يعرف أنين الماء ، والعاشق الذي حرم في هواه من حسرة جراه، وقاطف الزهر الذي حافظ على يده سليمة من الشوك، والذي قضى طول عمره في الرفاهية والترف لم يكدح في تحصيل علم، ولم يكد في اقتناء فن واحياء عبقرية، أولئك جميعاً محرومون الى الأبد من الاحاطة بكنوز أسرار الحياة، واستخلاص الذهب من مناجمه العميقة . يقدم لك هذه الأمثال الجميلة في هذه القصيدة : —

ان كانت الحياة خمراً صافياً يغمرنا من رأسنا الى القدم
ففي الدموع للحياة جدولٌ تصفو به النفس وتنبت الهمم
ان حباب خمرة الآمال لا يرقص إلاّ فوق أمواج الألم
والله في حكمته علمنا ان انشراح الصدر قبله ألم
عواصف الخريف في ليل السهاد علمت البلبل ترجيع النغم
دم الأماني فيه للشعر مداد وفي خطوب الدهر أسفار الحكم
نشيد هذا الكون يبدو ناقصاً حتى يتم الدمع ألحان النشيد
ما أيقظ الشباب من سكر الهوى إلاّ الأسى ينبه العقل الشريد
يا رب شاك صاغ في آلامه جواهر الألحان من بحر الأنين
قد كان مثل العود في أحلامه فأيقظته ضربات العازفين
آلامنا الى العلا أجنحة نعلو بها فوق مطارات النسور

الروح سرٌّ والحياة ظلمة     وشعلة الآلام للأرواح نور
في خفقان القلب لحنٌ صامتٌ     لم تحكه على غصونها الطيور

* * *

ان الذي لم يدرِ آفات الشقاء     ولم تساهر عينه نجم السماء
ولم يحطم جام قلبه الأسى     ولم يذر ظلام ليله البكاء
والساخر اللاعب طول عمره     لم يستمع الا الى عذب الغناء
والعاشق المحروم في غرامه     من لوعة الذكرى وحسرة الجفاء
ومجتني الزهر الذي لم تختضب     يداه في الشوك بحمرة الدماء
جميع هؤلاء مهما سعدوا     من نعم الدنيا بأمن ورخاء
فان أسرار الحياة تختفي     عنهم وهم عنها دواماً في اختفاء

وانه ليملكك العجب اذا رأيت الشعراء جميعاً في ناحية، واقبال وحده في ناحية أخرى، فهم يتغنون بالوصال، ويذمون الفراق، ويتبرّمون بالاسفار ويحمدون الاقامة الهانئة، بينما هو يحب الرحلة والتجوال، ويطرب لدمدمة الرعود، وأزيز المراجل، وصخبة الأمواج. فيقول:

الوصل في الحب غالٍ     وقيمة الهجر أغلى
الوصل حلوٌ ولكن     عواقب الهجر أحلى

* * *

في القرب موت الأماني     والعيش فيه فناء
والبعد فيه حياة     يذكي ضياها الرجاء

* * *

ان اتقاد الأماني     وحسن شدو الطيور
وضجة الخلق سعياً     في العالم المعمور

* * *

والسحب حين تراها     تشق الربى واليباب
والموج في البحر يعلو     حتى يغرق الهضاب

* * *

وكل ما في البرايا     من روعة وجلال
لولا يد الهجر فيه     لم يزدهر بجمال

يحدثنا اقبال عن الظواهر الكونية بلغة ساحرة ، ويبين لنا مراراً أن الربيع لا تتفتح أزهاره، ولا تخضر أغصانه ، ولا يبدو كل ذلك جميلاً في الحدائق ، إلا عندما تتساقط كل الأوراق بعواصف الخريف ، وتبدو الطبيعة جافة صامتة قاتمة حتى يوقظها ذلك الربيع بتغريد أطياره كما مر في العصور السابقة. فيقول لنا: إن ظواهر الحياة تعطينا درساً بليغاً. فليس الموت إلا غروباً لشمس الروح، ثم تطلع بعد ذلك في صبح الخلود الذي لا فناء بعده:

زعم الجاهلون أن المنايا     مغربٌ فيه للحياة انقضاء
ألم ينظروا الى الشمس يبدو     نورها بعد ما طواها المساء
تغرب النفس ثم يشرق صبح     فيه للنفس بالخلود انقضاء

عندما أريد بناء مستشفى في الحجاز أراد اقبال أن يقدم إلينا من سحره بلسماً يهون صدمة الموت، ويوضح أن المرء بعد اجتياز تلك المرحلة يحيا حياة خالدة لا يحياها الخضر في عمره الطويل. ثم يهون احتمال الصدمة الأخيرة للحياة بعبارات تشافيها خياله وتصويره. فأنت ترى أن الشاعر ينظم القصيدة فإذا لم يجدها ملائمة لطبيعة روحه حذف منها أشياء وأثبت غيرها جديدة، وأعمل فيها التغيير والتبديل. كذلك الرسام والمهندس والكاتب وكل الفنانين الذين نشاهد مبتكراتهم أمام أعيننا، والقدرة تبدع في فن الإنسان وترق به تحسيناً وتجميلاً. وليس الموت إلا حالة يراد بها إصلاح النفس وإعلاؤها، وتتجلى لك هذه الحقيقة واضحة في هذه الأبيات: —

يا أساة الحجاز هلا علمتم     أن برء الحياة أرض الحجاز
أن سر الحياة يكمن في الموت     فيحكي حقيقة في مجاز

* * *

فرح المؤمنين في سكرة الموت     بقرب المهيمن المتعالي
هو أسمى من عيشة الخضر في الدنيا طوال الدهور والأجيال

* * *

لم جئتم للمؤمنين ببرء     ان زعمتم يداوي الجريحا
والذي ذاق من يد الوحي كأساً     ليس يحتاج للدواء مسيحا

* * *

كل كون أبلته أيدي الليالي     أحرقوه ليصنعوه جديدا
يهدم البيت بعد حين ليبنى     منزلاً عالياً وقصراً مشيدا

[يتبع]